بعد فوات الأوان !

قصة بقلم علي بدر

دخل بائع اوراق اليانصيب المقهى ، وهو يصيح بهدوء : «نتائج السحب الاوراق الرابحة » . فومى اليه الاستاذ فاضل ، بينما كان يرشف من فنجان الشاي رشفته الاولى ، فدنا منه وبسط امامه على الطاولة المربعة الصغيرة ورقة قد طبعت فيها نتائج السحب ، فأخرج الاستاذ فاضل من جيبه نصف ورقة اليانصيب التي اشتراها منذ ثلاثة ايام .. واطرق برأسه يبحث عن حظه بين حظوظ الرابحين .

كانت الارقام قبل اليوم لا تعبر للاستاذ فاضل عن شيء ، ولم يكن يشعر تجاهها بعاطفة ما . كان اذا نظر الى السماء الصافية ، في ليلة صيف رائعة ، حاول ان يحس ببهجة التأمل في النجوم دون ان يعدها وكان ينظر الى واقع حياته مع الناس ، نظرة مجردة من كل محسوساتها متعلقة بما هو مثالي بحت ، وبذلك كان يحس انه منسجم في تعرفه مع واقع مثله الاعلى الذي يحسبه مصباحا ينير له طريق حياته .

الا انه بعد أن تخرج من الجامعة وسلك سبيل الوظيفة ، بدأيحس شيئا فشيئا بسلطان الارقام عليه وعلى الحياة حوله . وكان يقاوم هذا الحرج ، بكثير من الصبر ، باذلا من طاقة روحه ما يدعه يستريح الى هذه الحياة التي قرر ان يمضي بعضها في الوظيفة ، ريثما تتحسن الامور . وفي الوظيفة تعلم ان يقف في اول كل شهر امام منضدة كبيرة ليبادره المحاسب الذي جلس خلفها :

ـ اهلا بالاستاذ فاضل

فيرد عليه مازحا :

ـ اهلا بوزير المال !!

وينقده المحاسب ـ ٤٣٣٣٥ ـ قرشا راتبه الشهري ، دون ان يزيد عليه قرشا واحدا . انه اعزب لم يتزوج بعد . يفكر بالزواج ولكنه يفكر بالحب ايضا ، وتقف رغبات نفسه المتعطشة امام عينيه ، منتصبة كالسراب ، تثنيه عن تحقيق هذا المشروع الذي كان يعتقد في قرارة نفسه ، انه سوف يتحقق ذات يوم من تلقاء نفسه . ويعود الاستاذ فاضل الى المنزل . ان الدراهم لا تزال في جيبه ، ولا يزال كعادته يتلمس جيبه ، ليطمئن الى ان الراتب لا يزال في امان . ولا يكاد يصل المنزل حتى يطرق الباب عليه صاحب الدار فينقده مئة ليرة . نعم مئة ليرة اجرة هذا النزل الذي يقطنه . ويسأل الاستاذ فاضل نفسه :

ـ كم بقي من الراتب ؟

ويسمع الجواب :

ـ بقي منه ٢٣٣٣٥ قرشا

لسوف يزور السمان ، والقصاب ، وهو بعد ان يزورهما كما يفعل كل شهر ، فان القصاب والسمان سوف يأخذان منه مئة ليرة اخرى . ولكنه تجاه ما تبقى معه من راتبه يقف حائرا . كيف يستطيع ان يتصرف بالباقي. انها ارقام جامدة ولكنه يحس بها يشعر ان كرامته كانسان معلقة برقم محترم من المال يستقر في جيبه فلا يتمزق من الداخل دون ان يشعر به احد ، ما دام يرتدي سترة مكوية ، وقميصا ذا ياقة منشاة ، وحذاء دابه اللمعان . ان ديونه كثيرة : الخياط يطالبه بمئة ليرة . بائع القمصان بخمسين . احد الاصدقاء بمئة وخمسين ليرة . وهو الا يصرف شيئا طيلة الشهر ؟ الن يذهب الى السينما ؟ الن يقعد في مقهى ؟ الن يشتري مجلة ؟ الن يزور الحلاق ؟ الن يضحك مرة عندما يحس انه تجاه فتاة او امرأة تقرب منه السماء ذات النجوم المشعة ، كلها ، مرة واحدة ؟ بلى انه لسوف يفعل ذلك كله . سيدفع خمسين للصديق الذي يقترض منه النثريات طيلة الشهر . وسيدفع خمسين ليرة للخياط. اما بائع القمصان فسيؤجله الى الشهر القادم . ولكنه سوف يدفع ثمن صرفيات الماء والكهرباء لامه في الحال . ويسأل الاستاذ فاضل نفسه مرة ثانية :

ـ كم بقي من الراتب ؟

ويسمع الجواب :

ـ بقي منه ١٨٣٥ قرشا

لسوف يترك هذا المبلغ البسيط في جيبه ريثما ينتهي !!

ان الاستاذ فاضل لا يزال يحس بانه انسان مثالي . لم يكن قبل الان يشعر انه مشدود لسلطان الارقام . لم يكن محاسبا ذات يوم . ولم يضطر لاتقان الرياضيات في حياته الدراسية قط . كان يشعر انه انسان بعيد عن الارقام وعن سلطانها عليه . ولكنه في هذه الايام كلما وقف في غرفة من غرف منزله ، تأملها بحنان وحساسية ومشاركة وجدانية لا سبيل الى وصفها . غرفة النوم تحتاج الى اسرة جديدة غير الاسرة الحديد .. تحتاج الى خزانة ، ان غرفة النوم تكلف الف ليرة على الاقل . غرفة الاستقبال التي صممها المهندس لهذا الغرض ، خير ما يمكن ان يقول عنها الاستاذ فاضل انها غرفة وداع ، انها عارية ويلزمها الف ليرة ثانية . الصالون بحاجة الى اثاث متواضع وطاولة طعام.. انه يضحى صالونا بالف ثالثة.. هذه الالاف البسيطة كلها ضرورية ، يستطيع الاستاذ فاضل ان يفكر حتى بالحب .. انه لا يستطيع دعوة اصدقائه .. حتى صديقاته ، فكيف به اذا رفع الستارة عن مسرحه ودعا الجمهور الغريب لرؤية منزله ، اتكون الفتاة التي سوف يخطبها للزواج ، هينة على اهلها الى هذا الحد ؟. اين ستنام ؟ اين تستقبل الزوار ؟ كيف تستطيع ان تشعر انها في بيت الزوجية ؟ لا .. لا .. ان الاستاذ فاضل انسان عاقل يعرف كيف يفكر.. وكيف يناقش الامور ، وبخاصة اذا سألته امه :

ـ الن تتزوج يا بني ؟

ـ بلى يا اماه !

ـ اذن لماذا لا تدخر من راتبك شيئا لاعداد الجهاز ؟

ان امه تحبه .. ولكنه يحب الحقيقة اكثر . ان راتبه ينتهي كل شهر كما انتهى في هذا الشهر .. وكما سينتهي في الشهر القادم .. والذي يليه الى ان يحال على التقاعد ... فيعيش بقية العمر براتب اقل !!

كان الاستاذ فاضل ـ وهذا دابه منذ ان وعى حياته ـ شغوفا باوراق اليانصيب . انها حقا ارقام ولكنه لم يكن يشتريها لانه يؤمن بها . بل كان يشتري ورقة اليانصيب ، شعورا منه انها توفر له شيئا من الاستقرار تجاه ما يعانيه من مشكلات مالية . فقد كانت ورقة اليانصيب ،شعورا منه انها توفر له شيئا من الاستقرار ، تجاه ما يعانيه من مشكلات مالية . فقد كانت ورقة اليانصيب اشبه بالمخدر الذي يعرفه عن واقعه التعس ، فلا يعود للتفكير فيه الا بعد اعلان النتائج ، والتربص لشراء ورقة اخرى ، فيعاوده تأثير المخدر من جديد . وكان دابه منذ ثلاث سنوات ان لا ينظر في ورقة يانصيب يعرضها عليه احد الباعة ، الا اذا اراد ان يشتريها . منذ ثلاث سنوات عرضت عليه ورقة تحمل الرقم ـ ٦٦... ـ فرفض اخذها ، اعتقادا منه ، ان الحظ اضعف من ان يجبر ثلاثة اصفار على

الوقوف الى جانب بعضها بعضا ، لحساب صفر رابع .. لحسابه هو .. وكأن ان اشترى ورقة غيرها .. ولكنه ما ان جلس يستمع الى نتائج السحب المذاعة في الراديو ! حتى صعق للنتائج ، لقد كان الرقم -٦٦...- الذي رفض شراءه يربح الجائزة الاولى . ومنذ ثلاث سنوات وحتى اليوم ، اضحى من عادة الاستاذ فاضل ان يشيح بوجهه عن اية ورقة يانصيب الا اذا اراد ان يشتريها . ومنذ ثلاثة ايام مر به بائع اليانصيب. لعله هذا الذي يدور المقهى عارضا على الزبائن نتائج السحب - او لعله غيره .. ومد له البائع رزمة من اوراق اليانصيب . انها المرة الاولى في حياة الاستاذ فاضل التي يشعر فيها انه مفلس . الديون رغم قلتها كانت اشبه بحبل المشنقة ، يضيق حول عنقه شيئا فشيئا . وهذا المنزل الفارغ من كل شيء كان اشبه بصندوق من صناديق الموتى ، ينتظر لحظة الامتلاء . وهذه الوظيفة التي تشده اليها ، وراتبه الذي لا يزيد عن - ٣٣٣٥ - في كل شهر قرشا واحدا ، وحياته الضنكة ، كانت تمثل له بداية لا نهاية لها من الحزن والقتام ، هذه الصور المفجعة في حياة الاستاذ فاضل دفعته لان يحدق بقوة في ورقة اليانصيب التي كانت تغطي رزمة ضخمة من اوراق الحظ ؟ كان من الراتب في جيبه بقايا لا تزيد عن - ١٨٣٥ - قرشا.وكان يجلس الى جانبه صديق يحدثه عن صديقه له ، ترفض زيارته اذا لم يشتر اسطوانة معينة ليرقصا على انغامها طيلة السهرة ، وبينما كان الاستاذ فاضل يبسم لهذه الفتاة التي صفرت هموم الحياة في قلبها ، حتى وقفت على اسطوانة معينة دون ان تنكسر ، كان يمد يده الى الورقة الظاهرة فيأخذ نصفها ويدع نصفها .. ولكن بعد ان اصبح نصف الورقة في يده سأل البائع :

- العدد ثلاثة ، مكرر ثلاث مرات ، اتعتقد انها ستربح ؟

فرد عليه البائع بابتسامة، شاعرا ببداهة البائع الخبير انه تجاه زبون اوشك ان يقع في فخ الحظ

- الحظ يا استاذ . الحظ اعمى يا استاذ . خذها وتوكل على الله.

ونقده خمس ليرات ، وطوى الاستاذ فاضل نصف الورقة في رفق وحنان ، واودعها محفظته الجلدية التي تضم ما تبقى من راتبه .

امضى الاستاذ فاضل ايامه الثلاثة الاخيرة في ازمة نفسية لم يعهد لها مثيلا في حياته كلها . كان خلال دراسته البائسة يؤمن ان الغد افضل من اليوم . لسوف يتخرج من الجامعة لتفتح الحياة له ابوابها . ولكنه الان بعد ان فتحت له هذه الابواب ، حصر في هذا الحيز العنيف في هذه الارض الموحلة التي كلما حسب ان سينجو منها غاص الى اسفل. انه الان موظف . وراتبه معلوم . يزيد كل سنتين - ٢٥ ليرة - انه لم يقض في الوظيفة سنتين . وهذه حياته ، تمضى كلها هكذا بددا ، وراتبه ايضا يضيع كل شهر بين اجرة المنزل ، وثمن الطعام ، وبعض الديون التي كلما وفى بعضها ، استدان ما يعادلها من يد اخرى .. وهذه الغرف التي توشك ان تكون فارغة ، كيف يملأها وامه تريده ان يدخر من راتبه ، بينما تسأله كل يوم :

- الا تتزوج يا فاضل . بودي لو تزوجت قبل ان اموت ؟

فيجيبها بحرقة والم ..

- بلى يا اماه . ان الوحدة قاتلة . لسوف اتزوج .. ولكن ليس الان . عندما يعدلها الله !!

انه محروم من كل شيء .. حتى من الحب فكيف يفكر بالزواج ؟ كيف يفكر بملء الغرف لتدفأ ، قبل ان يملأ نفسه ويدفيء قلبه ، ايفرح اذا امتلأت الغرف .. ثم ملات البيت قطعة حية اخرى ، دون ان يمس قلبه تجاهها بالشوق والحنان ؟

لم يدر الاستاذ فاضل ، لماذا كان ينظر هذه المرة الى ورقة اليانصيب نظرة حنان وعطف . كان بين الساعة والساعة يخرجها من محفظته ، ويتأملها ، ثم يقرأ الرقم -٣٥٢١٣- فيحس انه تجاه اعداد متلاصقة متناسقة ، ، اشبه بالعائلة التي فيها الاب والام والاولاد . وكان وهو ينتظر يوم الثلاثاء ليقرأ نتائج السحب ، لا يدري ماذا يصنع ليدع هذه الورقة تربح .. ولو الف ليرة . لم يفكر مرة واحدة في الجائزة الاولى ان الجائزة الاولى في يقينه ليست لاحد ولو ربحها احد المؤمنين بالحظ الاعمى. كان يريد الف ليرة يفي بها ديونه..ويشتري اشياء بسيطة لهذا البيت الذي يشكو البرد ، ويتمتع بالحياة عدة اشهر ، قد تساعده على التفكير الصحيح في المستقبل ، بأفضل مما يفكر به في هذه الايام ، وهو غارق في الديون والبؤس ، بينما عجلة الزمن تغوص قلبه وكأنها تغوص في ارض موحلة!!

عندما ضمه السرير مساء البارحة احس بالبرد . الشتاء قارس ولا شك. ولكنه اذا طمر رأسه في صدره ، فقد تدفيء انفاسه الحارة ، برد الشتاء الذي تجمع في غرفته .. ولم يواته نوم . تذكر ديونه . تذكر كل شيء. وكان ضوء القمر يتسرب عبر النافذة فيضيء نصف سريره ، ومرآة الخزانة المستندة الى الحائط .. وامه بجانبه على السرير المجاور ، تغط في نومها العميق . وابتسم في الظلمة لهذه الام التي تنام بمجرد ان تضع رأسها على المخدة . لقد تزوجت . وليس عليها دين ما . ولا تفكر بمستقبلها . فلماذا لا تنام ؟

وتذكر من جديد حبل النجاة الذي لا يقطع . انها ورقة الحظ ، وتمتمت شفتاه في صوت خفيض كان اشبه بنبضات قلب مفجوع :

- الف ليرة يا رب !! الف ليرة فقط

واحس ان دموعا تنهمر من عينيه .. لقد كانت ساخنة ، ولكن دون ان تلذعه . انه يبكي . ان الاستاذ فاضل يبكي دون ان يسمعه احد سوى الله . لم يرفع صوته . كان يتحدث فيما بينه وبين نفسه ، فيحس انه جالس في حضرة الله :

الف ليرة يا رب . ان ورقتي برقم ٣٥٢١٣ ، والسحب غدا . الف ليرة يا رب .

ان الاستاذ فاضل لم يكن قبل اليوم يشعر تجاه الارقام بشيء . ان الارقام في حياته كانت فاشلة فلم تترك اثرا او ذكرى فرح او الم . ولكنه عندما اشترى هذه الورقة منذ ثلاثة ايام احس لاول مرة بعاطفة جديدة حيال هذه الورقة ، حيال ارقامها الجامدة .. ولكنه الآن ، وبعد ان حدق مليا في الصفحة المستقلة التي رماها البائع امامه على الطاولة ، وقف على رقمه .. لا انه ليس رقمه .. انه ليس هو بالذات . ان فيه نشازا فلو كان بدلا من العدد تسعة العدد واحد لربح الف ليرة . لقد كان الرقم - ٣٥٢٩٣ يربح الفي ليرة . ان العدد تسعة عدوه اللدود . انه يكرهه حتى النهاية .. حتى آخر خفقة من قلبه الذي ضرع به الى الله مخلصا.

ورفع الاستاذ فاضل فنجان الشاي الى فمه يرشف منه رشفة اخرى فاحس ببرودة الشاي . لقد صرفته تأملاته عنه . حاول ان يبتسم لهذه النهاية ولكن الاسى امات الابتسامة على شفتيه . لقد خيل اليه ان دموعه البارحة في السرير لم تكن كافية ، فلما رفع فنجان الشاي الى فمه من جديد ، كانت قطرات من الدمع السخين تنهمر متلاحقة ، ولكن بعد فوات الاوان !

علي بدور

حلب — من الاصدقاء